7

ما وراء البيت

تنشغل ماري وزوجها شارل في بيتهما الريفي، نشاطهما لا يتوقف ومشاريعهما تسير على قدم وساق، يعشقان تذوق النبيذ والأجبان والحلويات من كل نوع وشكل. بيتهما على الطراز العتيق تنتشر من حوله زهور وورود وأشجار تتطلب عناية دائمة. لا يكلّان ولا يملّان. عائلتهما كبيرة ومتفرعة تميزها الطيبة والود والمحبة، يجتمعون لأي مناسبة مهما قلت أهميتها، سواء كانت أعياد ميلاد أو عماد أو أي حفلات يختلقونها ليتشاركوا البهجة.

قررت أن أترك ورائي معرفتي النظرية بفرنسا والفرنسيين في سعيّ مني للتعرف على فرنسا الحقيقية، فرنسا الحياة اليومية.

كان شارل وماري يضمدان جراحنا ويساعداننا على البقاء وتحمل

المعيشة. وكلما كان لهيب نيراننا يخبو نستدير نحوهما أو يبادران بأنفسهما ونعزم على اللقاء. كان يكفي وجودنا بينهما لنحسّ بنبض حياتهما ولتدبّ الحياة في أوصالنا وننسى مآسينا. كنا نحاول تسليتهما بأقاصيص طريفة وحكايات مصيرنا فيتفاعلان معها ويبتهجان، على الأخص ماري التي كانت ضحكاتها ترنّ في أرجاء البيت. وحين أقصّ عليها حكايات أمي واختفائها الدرامي وفقدان بيوتنا لم يكن رد فعلها مغايرًا، إنما مع هذا لم تكن ضحكاتها تزعجني بل، ويا للمفارقة، كانت تسليني وتطمئنني.

اللعنة وألف لعنة على الماضي، بير السبع بعيدة من زمان ولا سبيل اليها، وأمي رحلت... وأنا الآن في فرنسا مع أولاد وزوج "أخذتُه" من الجزائر كنيته "الكنز" وهو اسم على مسمى. اللعنة على الماضي، ما يهم الآن حاضرنا واللحظة التي نعيش. سكنا في شقة أولًا ثم في منزل بجنينة، ونعمل في وظيفة على قد الحال ستتحسن فيما بعد. حياة "زغنونة". نقضي عطلة نهاية الأسبوع مع أصدقائنا الجدد في بيتهم الجميل بعيدًا عن بير السبع، بعيدين كل البعد عن بير السبع. إنها القطيعة مع بير السبع.

لكن يا إلهي، كل هذا هراء. أكذّب على نفسي. لمحت في التلفزيون يافطة مكتوب عليها: بير السبع. نعم مرت بير السبع لثوان قصيرة على الشاشة، وميض بير السبع، أنها حقًا موجودة، كما سبق وحكيت عنها، لم تكن حلمًا.

مسكونة أنا بها. هي هوس يطاردني بلا هوادة. لا، لا، ثم لا... لا أكترث

لا تهمني هذه المدينة. لن أعود إلى هناك ولا إلى غزة، ولا حتى لأي مكان. أطالب بحق السماح لي بالذهاب إلى حيث هي، بتقبيل ريح الصحراء من بعيد والقول أني على علم بما جرى وأن هؤلاء الذين أحببتهم، كانوا هنا واليوم قد رحلوا، هؤلاء الذين أحاطوا حيواتي بهالة سرية خفية، هؤلاء الذين لم أكن أعرفهم ولكنهم حلّقوا فوق دروبي. ناسي وأهلي وأجدادي. كل الذين قادوني عبر التيه والضلال محاولين قدر إمكانهم إرشادي. فليُمنح لي هذا الحق وإلا سأنتفض وأنتزعه بكل ما أتيت من قوة وتصميم.

نفذ صبر أمي في أيامها الأخيرة، أصبحت تخالف وتعاند وتتخذ قرارات فقط لتزعج هذا العالم. بددت حكمتها التي اكتسبتها على مدار السنين وأودعت الهدوء والرزانة جانبًا وباتت عصبية وسريعة الانفعال، تقضي أوقاتها طالعة نازلة، راكضة مهرولة. لا تستقر على حال ومكان وتختلق الانشغالات والمهمات.

كم كنت أفضل أن تبقى في البيت وشال يغطي كتفيها، تخيط لنا الملابس وترقع الجوارب وتحكي حكايا لأولادي. لكنها لم تعد تفعل ذلك إلا فيما ندر. أصابتها نوبات هوس لعيش حياتها في أواخر عمرها، تسلحت بعزيمة لتنفيذ قرارات صعبة المنال بل خطيرة في جزائر كانت تتخبط آنذاك في مدارات حرب أهلية فتاكة يضرب فيها الموت خبط عشواء.

خلال سنوات الحرب الأهلية في الجزائر غادر والديّ شقتهما تلك التي تُمنح هناك للمعلمين وهي واحدة من بين شقق بنيت على عجل بعد

الاستقلال لاستقبال وفود المدرسين الأجانب من عرب وعجم. سمي الحيّ بالحيّ التقدمي وهي ترجمة خاطئة عن الفرنسية، والأصح هو الحي التطوري، للتعبير عن قابليته للتطور فمبانيه كانت من الخشب الرديء ومسبقة الصنع بسبب الحاجة المستعجلة لها. آنذاك كانت الجزائر تواجه مشكلات التعليم والبناء والتصنيع والطبابة. وكلها ضرورية وعاجلة وبحاجة إلى حلول آنية.

لكن حينا التطوري هذا لم يكتف بعدم البقاء على حاله فحسب بل ترهل تدريجيًا من دون أن تمسه أدنى إصلاحات. كنا محاطين بمساكن عمال مزارعين أو صناعيين غالبيتهم من الفقراء والأميين.

مسكننا هذا كان مؤقتًا، شهد الانتظار والاستماع المتواصل للأخبار. مسكن تورط فيه أبوايّ شيئًا فشيئًا. مرت السنون الواحدة تلو الأخرى، خمسة، عشرة، عشرون، سنوات الجمر. كبرتُ وتركت أهلي وانطلقت.

8

الحرية... أخيرًا!

ها قد غادرتُ البيت!

لم أعد أسكن مع والديّ. صرت في الجامعة الجزائرية حيث حلمت من سنوات أن أكون! في الجزائر العاصمة أخيرًا، في المدينة الجميلة الكبيرة حيث الحرية والعلوم السياسية التي لطالما رغبت بدراستها، وحيث أكتشف الماركسية والرفاق والحب والإباحية. قلت وداعًا لقيودي وتقاليدي بل تقاليد أهلي. وداعًا فلسطين. الأرض العتيقة، أرض أمي المزروعة في قطع مطوية من دانتيل مصْفَرٍ مطرز بخيوط من فضة اهترئت بفعل الزمن وطول الحفظ في الحقائب. وداعًا فلسطين، تحررت منك الآن، بتّ حرة وخفيفة. لا وطن، لا أرض، لا دولة، لا سُلطة، لا سلطة بأي حال من الأحوال.

ها أنذا أكتشف في الجامعة الرفاق ونقاش الأفكار. مفكرون من اليسار مؤمنون بالنضال العالمي لشباب العالم أجمع، تجمعهم أفكار لا تشابه تلك التي كانت لأبويّ أو لفلسطينيين على شاكلتهم. عفا الزمن عليهما وعلى تركتهما الثقيلة، على ذكرياتهما وصور بير السبع وغزة. كنّست كل هذا بعيدًا ورحت أتذوق الحبّ والخمرة حتى الدوار. كَثُر المحبون! عديدون ومتنوعون ومتحررون. أما الطلاب الفلسطينيون الذين أتوا من هناك فقد بقيت علاقتي بهم محدودة، أفرّ بجلدي منهم ما إن يذكروننني بوالديّ. ثمّ عرفت رجلًا ولا كل الرجال، صار معبودي الأوحد. علي الكنز، المهيب العظيم بثقافة مذهلة نقف أمامها معقودي اللسان. دماغ مسكون بالعالم، الثالث منه على وجه الخصوص. من خلاله تعرفت على إيما بوفاري، إيمانويل كانت، فيوليت لودوك، تانجرين دريم، السمفونية الخامسة، فرنسوا كوبرين، هنري ميلر، كارل ماركس، زينوفييف، و... اليسار العربي. كل هذا المزيج العجيب لأجله، بعت كل شيء، أبي وأمي، حتى أرضي كرمى له. في الحقيقة، سبق وبعت أرضي. عبدت رجلي هذا، محرري الذي أوقعني في عبودية الحب الممتعة.

تركت والديّ فسقطا على الفور فريسة المرض. هل كان ذلك ذنبي؟

أصيب والدي بسرطان البروستات ثم العظام، كانت آلامه لا تطاق. كنا في 1982 أثناء حرب لبنان ومجزرة صبرا وشاتيلا. كنت ورجلي المعبود على وشك الزواج حين نُقل أبي على وجه السرعة إلى مستشفى فيل جويف